العلمانية
وخطرها على
الدعوة الإسلامية

بقلم

د/ إبراهيم عبدالرحمن عتلم

الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

لجنة التحكيم

أ.د/ عوض الله حجازى　　　أ.د/ محى الدين الصافى

العلمانية
وخطرها على الدعوة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. ومن تبعهم وسار على دربهم إلى يوم الدين.

وبعد

فلقد جاءت الدعوة إلى الإسلام بأمر من الله واختيار لصفوة خلقه - سيدنا محمد - ﷺ .. لتنقية المجتمع من الشرك وتخليصه من عبودية التقليد ، ووضح الرسول ﷺ هدفه وغايته بأسلوب رفيع كريم ، وتبرأ من كل غرض مادى، وعرض دنيوى يتنافس عليه بين البشر ، وقد أعلن النبى ﷺ رفضه لكل مساومة تتجه بالرسالة إلى غير هدفها الأسمى ..

ولكن هذه الدعوة واجهت مجابهة قاسية ، وخصومة عاتية من أقرب الناس إلى الداعية .. واتسعت هذه الدائرة .. واشتد الخلاف مع كل عصر بما يناسبه وذلك لأن الناس مختلفة الأهواء والاتجاهات فيما يحقق لهم نفعا عاجلا وتلك سنة كونية : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً .. وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ .. وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ .. » [1] ، فاختلاف الناس لحكمة عليا أرادها الخالق سبحانه لما فيها من تجليه للحق .. وحركة دائبة فى مواجهته للباطل .. ليهلك من هلك عن بينه .. ويحيا من حى عن بينه .. : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ .. وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [2].

١- سورة هود آية ١٨ ، ١٩.

٢- سورة النحل آية ٩٣.

ومن هنا كان لكل أمة خصائص تميزها عن غيرها .. وذلك بسبب ما مرت به من سلوك وتجارب نبعت من ظروفها : الاجتماعية .. والثقافية .. والاقتصادية .. والتاريخية .. وقبل كل ذلك " العقيدة " التى تطبع الأمة بطابع متميز .. أو بنمط خاص للنمو الحضارى.

والغرب تميز فى نموه وتقدمه بالمادية وارتبط بفصل الدين عن الدولة ، بخلاف الشرق الذى تميز بالتقدم المادى الروحى لارتباطه بالدين.

* **أسباب ظهور العلمانية :**

ولقد كان التقدم العلمى والفكرى الغربى ثمرة جهود عدة قرون من التنوير والنهضة من مفكرى أوربا فى المنهج الذى يجب أن يتبعوه للنهوض ببلادهم .. وكانت العلمانية هى جوهر منهج الغرب فى التقدم والتحضر بعد حلقات من الصراع اختلفت فى العصور الحديثة ليضاف إليها أسباب أخرى ظهرت فى القرون الوسطى جعلت من الإنسان الغربى يتخذ موقف العداوة ، تجاه الدين ورجاله ، وهى التى مهدت لظهور العلمانية فى بداية التاريخ الحديث للغرب .. ويرجع ذلك إلى الأخطاء التى ارتكبها رجال الدين - وليس الدين نفسه - والتى تتمثل فى :

- الحجر على العقول .. وتكبيل كل إبداع فكرى .. وكل كشف علمى.
- الحجر على القلوب المتمثل فى صكوك الغفران .. وقرارات الحرمان .. ومحاكم التفتيش .. والسجون.
- تحالف الكنيسة مع الظالمين والمستغلين للشعب.
- تحريف المسيحية .
- اضطهاد الأقليات الطائفية ، المتمثل فى حروب الكاثوليك والبروتستانت.. والمتمثل أيضا فى اضطهاد اليهود من قبل الدول الأوربية ككل.

ويقظة الحركة اليهودية ، وذلك لأن إبعاد الدين عن المجتمع الغربى يعنى إبعاد المسيحية ، وقيام الدولة على مفهوم القومية ، وهذا يعنى السماح لكل الأديان بالعيش فى وطن واحد .. ويعنى أيضا مشروعية الوجود اليهودى ، لهذا فقد زكى اليهود وساعدوا كل حركات البعد عن « الطابع الدينى للدولة » وعندما نجح عصر التنوير دخل اليهود المجتمع من أوسع أبوابه.

وحدث صدام بين رجال العلم والحرية من ناحية والكنيسة من ناحية أخرى .. وكان قوياً بنفس درجة قوة تسلط الكنيسة على المجتمع الغربى فى القرون الوسطى ..

ثم نشطت الحملات العدوانية ضد الإسلام الذى رأى فيه الغرب قوة تهدد أوربا المسيحية فى عقر دارها .. حيث غلب النصرانية فى الشرق .. وقد بدأ يغلبها فى الغرب أيضا .. فأعدوا العدة لصد تيار الإسلام بمحاولات تغريب شعوبه عن دينهم .. وبيئاتهم ، ومحاربة الدين بالافتراء عليه .. وبالطعن فيه .. بعد فشلهم فى الجانب العسكرى بالحملات الصليبية التى وحدت صفوف المسلمين ، وقضت على الخلاف وعوامل الشقاق ردحا من الزمن لمواجهة الخطر الزاحف عليهم من أوربا ، فنحا الغزو الأوربى للبلاد الإسلامية طرقا أخرى منها:

إثارة الخلافات بين الأوساط الإسلامية .. وإشاعة التفكك فى وحدة المسلمين .. واستخدام من يمكن إغرازهم من مسيحى الشرق فى تنفيذ سياسة الغرب .. الاستشراق والتبشير .. الصحافة .. دوائر المعارف والموسوعات العلمية والتعليم .. وغيرها.

حتى أصبح العالم الإسلامى مُحاطاً بموجات براقة وخادعة .. ومستمرة من التشكيك فى قدراته .. وفى دينه .. ليتحلل من إيمانه القوى .. ويصبح فريسة لقوى الشر الحاقدة ، وانهالت المعارك المتعددة والحادة تواجه المسلمين ، تارة من

الخارج وتارة أخرى من الداخل تحت دعاوى المذهبية .. والطائفية .. أو هما معاً ، وساعد على ضراوة هذه المعارك التنسيق الواحد بين قوى الشرق والغرب ضد كل ماهو إسلامى .

وهكذا زحفت الأخطار من كل صوب بتخطيط حاقد على الإسلام : دينياً .. وسياسياً .. وثقافياً .. واجتماعياً .. واقتصادياً ... الخ ، ومنها :

« العلمانية » التى وفدت لتفريغ العالم الإسلامى من محتوى عقيدته التى يرون فيها الخطر عليهم .. والعائق لتحقيق أهدافهم .. « يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ .. وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » (١) .. « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً » (٢) .

فالمهمة شاقة ، والطريق محفوف بالمخاطر ، ويجب على الدعاة أن يكونوا دائما على استعداد لمواجهة الاخطار أو العقبات ، والتصدى لها ، والرد عليها ، لأنهم يعيشون فى الحق الذى شرفهم الله به ، ويهتدون بنوره ، ويسيرون على ضوئه « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ »(٣) ، ويستعينوا بالتحمل والصبر الجميل ، حتى يتحقق لهم النجاح والوصول للهدف النبيل « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. » (٤) ، وعلى الله قصد السبيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د/ إبراهيم عبدالرحمن غنيم

١- سورة التوبة آية ٣٢.

٢- سورة الفتح آيه ٢٨.

٣- سورة فصلت آية ٣٣.

٤- سورة الرعد من الآية ١٧.

تمهيد :-

* العلمانية والتعريف بها :

من الأسلحة التى يستخدمها أعداء الاسلام فى تضليل المسلمين وإبعادهم عن الدين ، والتشويش على الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث «العلمانية» وهى دعوى خبيثة وخطيرة وفدت من العالم الغربى إلى العالم الإسلامى بهدف فصل الدين عن الدولة .. هذا الشعار الذى ساد أوربا فى العصور الوسطى ، حيث تسلط رجال الكنيسة على العقل الأوربى ، وساد سلطان الكنيسة على الحكام والعلماء ، وكان الصراع بين الكنيسة ورجال الحكم ، فنادى البعض بفصل الدين عن الدولة .. ولايعنى هذا إنكار الدين .. فإن إنكار الدين هو الإلحاد بعينه .. ولكن مفهوم فصل الدين عن الدولة .. يعنى حصر الدين وحصر سلطانه داخل جدران الكنيسة فلا يتعداها إلى المجتمع أو الدولة .. وهذا ما تعنيه «العلمانية»[1] إذ فى ظلها يمكن ممارسة الشعائر الدينية داخل المعبد لا يتعداه.. والدليل على ذلك أن أوربا التى نشأت فيها العلمانية تمارس فيها الشعائر الدينية داخل الكنيسة .. ولا يسمح للكنيسة بممارسة ماكانت تمارسه من قبل فى المجتمع أو الدولة) [2].

ومن ثم جاء معنى العلمانية على هذا النحو .. لأن الذين وضعوا هذه الكلمة .. لم يفهموا من معنى الدين والعلم إلا ما يفهمه الغرب المسيحى منها

١- لفظ العلمانية مشتق من العلم بمعنى : العالم أو الدنيا - وهى غير العلمانية من العلم .. ولذلك لا صلة لها بالعلم ومشتقاته ، وزيادة الألف والنون غير قياسية فى اللغة العربية - وإنما جاءت سماعا ثم كثرت فى كلام المتأخرين كقولهم : روحانى وجسمانى ، والترجمة الصحيحة لكلمة علمانية هى : اللادينية أو الدنيوية لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب بل بمعنى أخص .. وهو ما لا صلة له بالدين. من (دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ) د. على عبدالحليم محمود المقدمة.

٢- أضواء على الاتجاهات الفكرية المعاصرة) د/ جمعة الخولى ص ٨٣.

.. والعلم والدين - فى مفهوم الفكر الغربى - متضادان متعارضان .. والقصد من ذلك كله التشويش على المسلمين وخداعهم ، وطمس الحقيقة لدينهم ، ودس السم فى العسل لاستدراجهم عن طريق العلم الذى ينسبونه إلى العلمانية ، ليتم ذلك بالطريقة الغربية التى تقصى الدين عن الحياة وعن العلم معاً ، وعندئذ يتمكنون من إبعاد المسلمين عن دينهم شيئاً فشيئاً) (١).

* تعريف العمانية :

من العرض السابق يتضح أن مفهوم العلمانية هو : أنها نظام مؤلف من مبادئ وتجارب فلسفية تقوم على عزل الدين عن السياسة والدولة فى الحياة فى سائر جوانبها.

والعلمانى : هو الشخص الذى لا يطبق الدين فى السياسة ولا فى شئون الحياة كافة. (٢)

ولا نستطيع أن نفهم هذا المعنى ولا الهدف من العلمانية إلا إذا تتبعنا ظروف نشأة العلمانية .. والأصل التاريخى لها ، ومن هذه الظروف وتلك النشأة يتبين للدارس مدى خطر العلمانية على الدعوة الإسلامية ليس فقط فى العالم الغربى بل إن هذا الخطر يمتد حتى يشمل كل بلد إسلامى ..

وحين نتتبع نشأة العلمانية وظروفها التاريخية فما ذاك إلا لكى نرد تلك الترهات والأباطيل التى يرددها أعداء الإسلام للنيل من دعوتهم بالفصل بين الدين والدولة .. أو أنه لا دين فى السياسة ، ولا سياسة فى الدين .. تلك الشعارات التى رُوِّجت وسادت فى المجتمعات الإسلامية حين غاب الوعى الإسلامى ، وفتن بعض المسلمين بتلك الشعارات التى وفدت إليه عن قصد من الديانات الأخرى.

١- (نشأة العلمانية ودخولها فى المجتمع الإسلامى) د. محمد زين الهادى ص ٢٢ وما بعدها.
٢- العلمانية .. الأثر والنشأة فى الشرق والغرب ص ١٢ زكريا خالد.

* الأصل التاريخي للعلمانية وظروف نشأتها :

إذا أردنا أن نؤرخ للعلمانية وظروف نشأتها نجد ذلك بدأ سنة ١٠٥٤ م عندما حدث انشقاق كنسي فى النصرانية كان له أثره الخطر على النصرانية من جهة ، وعلى الأوربين من جهة أخرى .. حيث ظهرت الكنيسة الكاثوليكية بتعاليمها التى أطلقتها عليها « الإرادة البابوية » [١] أو « النظام البابوى » ونوجزها فيمايلى :

- أن لا يعلن فى الكنائس باسم أحد غير الباب ولا يذاع على الأرض بذكر أحد غيره.
- أن لا يباح لأحد غير البابا بمبايعة القياصرة والأباطرة وتوليتهم.
- للبابا وحده سلطة تعيين الأساقفة وعزلهم.
- للبابا وحده سلطة عزل الأباطرة.
- ليس لأى فرد أن يلغى قراراً بابوياً ، فى حين أنه من حق البابا أن يلغى قرارات بقية الناس.
- للبابا الحق فى محاكمة جميع الناس ، وليس لأحد الحق بمحاكمته.
- لا يسأل البابا عما يفعل « ولا يحاكم على تصرفاته ».

هذه هى الأوامر البابوية التى أصدرها جريجورى السابع سنة ١٠٧٤م -

---

١- كلمة «بابا» كلمة شرقية مركبة من « آب آب » ثم درجت وتخففت بلفظ « بابا » وقيل إنها: يونانية الأصل مأخوذة من « باباس » ومعناها: « الأب » أى الذى يرجع إليه فى الأمور كلها ، وكان يطلق على القسس والأساقفة قديما .. أما الآن فهو لقب مخصوص للبابا الذى يجلس على كرسى كنيسة روما ، وإن كان يطلق على « بابا » الأسكندرية بمصر .. أنظر تاريخ الانشقاق جـ١ ص ٢٠ ، والمجامع المسيحية ص ٣٤٥ ، د/ محمد رجب الشبتوى.

وعليه وجه جريجورى السابع مجمع روما الدينى سنة ١٠٧٥م نحو اتخاذ قراراً حاسماً بشأن التقليد العلمانى .[١]

وهذه القرارات لا تحتاج إلى تعليق لبيان فسادها حيث تجعل البابا فوق الجميع لا يسأل عما يفعل.

*** أسس التقليد العلمانى :**

١- أن أى فرد من الآن فصاعداً يتقلد مهام وظيفته الدينية من أحد الحكام العلمانيين[٢] .. يعتبر مطروداً من هذه الوظيفة ، ومحروماً من الكنيسة ، ومن رعاية القديس .

١- التقليد العلمانى : يراد به : قيام الحكام العلمانيون من أباطرة وملوك وأمراء بتقليد رجال الدين لمهام مناصبهم الدينية ، وهى مشكلة كبيرة كانت الكنيسة تعانى منها ، ومن السيمونية وهى : تعيين رجال الدين فى الوظائف الكنسية بطريقة بيع هذه الوظائف لمن يدفعون فيها ثمنا غاليا ، مما أدى إلى إساءة سمعة البابا - خاصة بابا الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى. راجع (أوربا العصور الوسطى فى الشرق والغرب جـ١ ص ٨٦ ، د/ حسن إبراهيم - د/ أحمد الصادق الطنطاوى.
أما البابوية فهى نظام كنسى ركز السلطة العليا باسم الله فى يد البابا وقصر حق تفسير «الكتاب المقدس» على البابا وأعضاء مجلسه ، وسوى الاعتبار بين نص الكتاب المقدس ومفاهيم الكنيسة الكاثوليكية .. ومن ثم أدخل هذا النظام كثيرا من التعاليم فى الكنيسة وأهمها : صكوك الغفران وعصمة البابا - الاعتراف بالخطأ - والرهبنة : والعشاء الربانى .. إلى آخر ما تصل بالكنيسة الكاثوليكية كنظام لاهوتى .. أنظر الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، د/ محمد البهى ص ٢٤٩.

٢- الحاكم العلمانى : يقصد به الحاكم السياسى والمراد به آنذاك الإمبراطور وملوك فرنسا وانجلترا ..الخ ، أنظر تاريخ الفلسفة الغربية جـ٢ ص ٢٠١ . والعلمانية تنسب على غير قياس إلى العالم أو العالمية وهى : نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض كل صورة من صور الإيمان الدينى والعبادة . أو هى : الاعتقاد بأن الدين والشئون الإكليركية اللاهوتية والكنسية ، لا ينبغى أن تدخل فى أعمال الدولة - والتحول إلى العلمانية هو التحويل من الملكية الدينية إلى الملكية المدنية - أو من الاستعمال الدينى إلى الاستعمال المدنى. راجع « العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق » ، د/ محمد البهى ص ٤ دار الطباعة المحمدية.

٢- وإذا أجاز إمبراطور أو ملك ، أو ما شاكل ذلك من مناصب دنيوية ، تقليد أحد رجال الدين مهام وظيفته الدينية فإنه يحرم من الكنيسة فوراً. (١)

وبهذه التعليمات حمى رجال الدين من إشراف الملوك والأمراء ، وجعل البابا فى روما المشرف الوحيد على رجال الدين فى العالم المسيحى الغربى .. وفى نفس الوقت أنذر بصدام عنيف مع الحكام العلمانيين .. إذ رفض ملك إنجلترا الاعتراف بسيادة البابوية والتبعية لها. فى حين لم يعبأ ملك فرنسا بآراء البابا وطلباته ، أما أباطرة ألمانيا فكان من الطبيعى أن لا يقبلوا قرارات جريجورى السابع العنيفة والتى تمس سيادتهم وإشرافهم على رجال الدين فى بلادهم.

وهكذا أوشكت البابوية عن طريق هذه الخلافات أن تقع فى نزاع وصدام عنيف مع السلطة الزمنية (٢).

ولذلك فإن السعى لحل مشكلة التقليد العلمانى .. أوقع الكنيسة فى صراع عنيف مع السلطة العلمانية .. وهو الصراع الذى يطلق عليه « النزاع بين البابوية والامبراطورية فى العصور الوسطى » (٣).. أو حرب التقليد العلمانى .. وأشعلت هذه المشكلة الحرب بين البابوية والامبراطورية على النحو التالى.

* الصراع على السلطة بين الكنيسة والحكام :

يروى برتراند راسل : أن التاريخ الأوربى منذ عهد « جريجورى » السابع حتى منتصف القرن الثالث عشر حول الصراع فى سبيل السلطة بين الكنيسة من

١- أنظر : قصة الحضارة جـ٣ مجلد ٤ عدد ١٤ ص ٣٩٥ ، و.ل. ديورانت ، أوربا العصور الوسطى جـ١ ص ٣٤٨ ، عاشور ، تاريخ ألمانيا ص ٣٥ ، بتصرف يسير.
ولا يحاكم على تصرفاته .. وذاك مالا يرضاه عاقل له أدنى إرادة أو تصرف.

٢- أوربا العصور الوسطى - عاشور جـ١ ص ٣٤٩ بإيجاز.

٣- الحركة الصليبية جـ١ ص ٢٠ بتصرف د/ سعيد عبدالفتاح عاشور.

جهة والملوك العلمانيين من جهة أخرى [1] ، وقد بدأت حلقات هذا الصراع سنة ١٠٧٦م قبل الحركة الصليبية بنحو عشرين عاما [2].

وقد حشدت كل من البابوية والإمبراطورية جميع قواها وإمكانياتها للتغلب على الطرف الآخر.

وشاءت الظروف أن يتبلور هذا الصراع بين البابا - جريجورى السابع - وبين الامبراطور هنرى الرابع حول شغل بعض الأسقفيات الشاغرة - وبخاصة فى شمال إيطاليا - حيث أصرَّ كل منهما - أى البابا والإمبراطور - على أنه وحده له حق تعيين من يشغلون هذه المناصب ، وتمسك كل منهما برأيه لأنه يرى فى انتصار خصمه تحطيماً للمبدأ الذى يسعى هو من أجل تحقيقه.

فالإمبراطور يرى أن هذا حقه الذى ورثه عن أسلافه ، والبابا بنى نظريته على أنه خليفة المسيح فى الأرض ، ووريث القديس بطرس فى الغرب .. ومن هنا نشب النزاع. ثم تأزم الموقف عام ١٠٧٥م عندما عين الإمبراطور أسقفاً لميلان سنة ١٠٧٥م ، فأرسل جريجورى السابع رسالة إلى هنرى أنذره فيها بالعزل ، وهدده بالويل والثبور إن لم يخضع لأمر البابا [3] ، وفى نفس الوقت ثارت ثائرة الملك فكانت المجامع التى عقدها كل منهما ضد الآخر.

١- يقصد بالملوك العلمانيين - الامبراطور وملوك فرنسا وانجلترا - يعنى السياسيين : أنظر تاريخ الفلسفة الغربية جـ١ ص ٢٠١.

٢- بدأت الحركة الصليبية عندما انعقد مجمع كليرمنت سنة ١٠٩٥م ، وجه فيه البابا « أربان الثانى» الدعوة إلى جميع المسيحيين - وعلق البابا إشارة الصليب على ذراع كل منهم - وبذلك أصبح الصليب شعار هذه الحرب . أنظر الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٥٢ .
تاريخ العصور الوسطى فى الشرق والغرب د/ حسن إبراهيم - د/ أحمد الصادق الطنطاوى جـ٢ ص١٧١ ، سنة ١٩٣٣م.

٣- أوربا العصور الوسطى جـ١ ص ٣٥٣ وما بعدها ، بتصرف. أنظر قصة الحضارة جـ٣ مجلد ٤ عدد ١٤ ص ٣٩٥.

مجمع ورمز سنة ١٠٧٦م :

بدأ هنرى الرابع فعقد مجمعاً فى ورمز يناير ١٠٧٦م وفيه قرر بالاتفاق مع أربعة وعشرين من الأساقفة :

١- بطلان انتخاب البابا جريجورى السابع ، واتهامه بالفسق والقسوة والسحر.

٢- عزله من منصبه.

وبعث الملك إلى البابا بهذا القرار : من هنرى الملك بأمر الله لا بالاغتصاب إلى هلبراند الراهب المزيف لا البابا.

وسلمت الرسالة إلى البابا فى مجمع عقده هو الآخر - على أثر مجمع الملك فى ٢١ فبراير ١٠٧٦م قرر فيه البابا :

١- توقيع قرار الحرمان على هنرى الرابع وعزله من منصبه.

٢- تحرير جميع رعاياه وأتباعه من إيمان الطاعة والتبعية التى أقسموها له.

وهكذا بدأت الحرب سافرة بين العاهلين .. وانضم الأمراء والأساقفة - فى ألمانيا - إلى صف البابا وعقدوا مجمعاً فى أكتوبر ١٠٧٦م قرروا فيه :

١- الخروج عن طاعة هنرى الرابع.

٢- انذاره باختيار ملك غيره على ألمانيا إن لم يغفر له البابا فى مدة أقصاها ٢٢ فبراير سنة ١٠٧٧م.

٣- يقضى الفترة بين أكتوبر ونوفمبر فى أحد الأديرة محروما.

٤- دعوة البابا إلى ألمانيا ليقول كلمته بحضور الأمراء الألمان.

هكذا نرى ما وصل إليه الحال بين الكنيسة - ممثلة فى البابا - والإمبراطورية .. وكانت الضربة التى أنزلتها البابوية بالامبراطورية .. فى .. «كانوسا» عندما ذهب الملك إلى البابا حافى القدمين يتذلل له طالبا المغفرة ،

حيث قبل البابا توبته بعد ثلاثة أيام من تذلله ورفع عنه قرار الحرمان .. ولكن النزاع استمر بينه وبين البابا مرة أخرى [1] ، وأخذت الامبراطورية والبابوية بين المد والجزر .. حتى عقد الأمراء مجمعا آخر في ... «فورخا هايم سنة ١٠٧٧م» قرروا فيه عزل هنرى الرابع عن العرش واختيار .. رودلف .. وإعادة توقيع الحرمان على هنرى وإقصائه عن العرش ..

فما كان من هنرى إلا أن رد على البابا بعقد مجمع في «بركمن» يوليه ١٠٨٠م ، وقرر فيه : عزل البابا جريجورى السابع وحرمانه من الكنيسة وانتخاب : «چيوبرت» ليخلفه في منصب البابوية.

وهكذا تعقّد الموقف واشتدّ النضال بعد أن وجد على المسرح اثنان من البابوات يتنازعان الكرسى البابوى - واثنان من الملوك يتجاذبان عرش الامبراطورية [2] .

وظلت حرب التقليد العلمانى قائمة حتى بعد وفاة جريجورى السابع سنة ١٠٨٥م ، وهنرى الرابع سنة ١١٠٦م [3] .

ويصور هذه الحلقة من الصراع بين الكنيسة والسلطة برتراند راسل فيقول :

كانت بابوية جريجورى السابع قد انتهت بكارثة في ظاهر الأمر ، غير أن سياسته قد استؤنفت بشئ من التعديل على يد «أربان الثانى» سنة ١٠٨٨م. الذى أعاد إصدار الأوامر التى تحرم على غير رجال الدين من تنصيب الأساقفة.. وأراد للانتخابات الأسقفية أن تتم حرة .. من رجال الدين والشعب ..

١- تاريخ ألمانيا ص ٣٥ وما بعدها ، موجز تاريخ العالم ص ٢٢٤ وما بعدها ، أوربا العصور الوسطى جـ١ ص ٣٥٥ - ٣٥٧- عاشور.

٢- الدرة النفيسة في شرح حال الكنيسة ص ٢٤٩ - ٢٥٢ ، قصة الحضارة جـ٣ مجلد ٤ عدد ١٤ وما بعدها . وأوربا العصور الوسطى جـ١ ص ٣٥٨ وما بعدها - عاشور.

٣- تاريخ ألمانيا ص ٣٧.

وفى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥م أعلن أربان الحرب الصليبية . التى أحدثت موجة من الحماسة الدينية أدت إلى ازدياد سلطة البابا ، وقضى أربان آخر سنة من حياته فى روما ، وهى البلد التى قلما يكون فيه البابوات آمنين[١] .

ثم كان البابا .. «باسكال الثانى» سنة ١٠٩٩م ، الذى أصدر قرار الحرمان مرة أخرى ضد هنرى الرابع .. فما كان منه إلا أن استسلم لهنرى الخامس سنة ١١٠٥م بمبادئ أبيه فأخذ يملأ الأسقفيات الشاغرة فى الامبراطورية وفق هواه دون الرجوع إلى رأى البابا .. وبهذا استمرت مشكلة التقليد العلمانى .. حتى كانت معاهدة الصلح بين الطرفين عام ١١١١م والتى تنص على :

١- أن تتنازل الكنيسة عن كل مالها من أراضى ، وحقوق إقطاعية ، وقضائية حصلت عليها من أيام شرلمان ، مكتفين بالقشور ، وبما يتبرع به الآخرون.

٢- فى مقابل ذلك : تنتهى مصلحة الإمبراطور فى التمسك بتقليد الاساقفة ويترك هذا الحق للبابا وحده.

ومعنى هذا أن لا يكون للإمبراطور حق تنصيب الأساقفة على أن يتنازل الأساقفة ورؤساء الأديرة مقابل ذلك عن أملاكهم الدنيوية.

ولكن :

هذه الاتفاقية لم تكد تعلن حتى ثارت ثائرة رجال الكنيسة على البابا .. وصار القتل والذبح فى شوارع روما - وألقى هنرى الخامس القبض على البابا والكرادلة وأجبرهم على الرضوخ فى مسألة التقليد العلمانى ، وبذلك إنتصر لأبيه.

ثم ما كان من البابا إلا أن نقض هذه الاتفاقية على أساس أنها تمت تحت تأثير الضغط والإرهاب .. حتى جاء البابا .. « كالكستس الثانى » سنة

١- أنظر تاريخ الفلسفة الغربية جـ٢ ص ٢٠١ وما بعدها بإيجاز.

١١١٩م - ١١٢٤م ، فعقدت المجامع البابوية المسكونية لإنهاء الصراع .. فكانت إتفاقية ورمز سنة ١١٢٢م ، التى تمت فى المجتمع اللاترانى فى الأول -التاسع المسكونى - سنة ١١٢٢م ، فأنهت الدور الأول للنزاع البابوى الإمبراطورى [١].

* **الدور الثانى من الصراع :**

ثم بدأ الدور الخطير فى الصراع بين الكنيسة والملوك والأباطرة .. حيث اشتطت البابوية فى التعليمات فأصدرت : ما يسمى بصكوك الغفران .. وعصمة البابا .. ومحاكم التفتيش .

تلك المبادئ التى جعلت من النظام البابوى نظاماً سيئاً للغاية حتى قال صاحب الدرة النفيسة ، فى أوائل القرن الثانى عشر كانت سيئات البابوات قد ازدادت وتفاقمت جدا ، وحالة الكنيسة الغربية قد وصلت إلى الذل والهوان[٢] .

والسبب فى ذلك .. أن الكنيسة الغربية .. تعتقد أن كاهن رومية الأعظم هو خليفة المسيح والمفسر الوحيد للكتب المقدسة والأخبار والنبوات الإلهية ، وتقنع بأن حل المسائل ، وفصل المشاكل الحادثة ، سواء أكانت فى حق الدين المسيحى أم فى حق الإنجيل ، يعود إليه وحده.

لذلك كان ملجأ الدين المسيحى ومستنده فى نظر الكاثوليك هو : الجد الأعظم - البابا - فكل ما قرره جد رومية الأعظم الجالس على كرسى الخلافة البطرسية ، فهو قطعى تجب طاعته ، لأنه قد وهب العصمة من عند الله ، فبيده حل الأحكام - وتشريعها - وبهذا أصبح البابا فى كل دور شارعا كما يهوى ، وغافرا للذنوب كما يريد ويشتهى .

١- الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة ص ٢٦٣ وما بعدها ، تاريخ الفلسفة الغربية جـ٢ ، ص٢٠٢ ، أنظر أوربا العصور الوسطى - عاشور ، جـ١ ص ٣٦٣ وما بعدها بإيجاز.

٢- الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة ، ص ٢٦٧.

ومن هنا أصبحت التشريعات لعبة سياسية تلعب بها أيدى السلطان البابوية بكل جرأة وانطلاقه [1].

ومن هذه السلطة التى استمدها البابا - أدخلت البابوية على المسيحية ماليس منها - وزادت سيئاتها التى تحدث عنها أصحاب التاريخ الكنسى ..

وكان مما أدخلته البابوية على المسيحية .. ما يعرف - بالعشاء الربانى[2]- وما يعرف - بغفران الذنوب - أو .. صكوك الغفران.

* أثر البابوية فى النصرانية :

١- العشاء الربانى :

يقول مؤرخ الكنيسة : كان من هذه السيئات - ما أدخله البابا باسكال الثانى - من مناولة المسيحيين الأسرار الإلهية تحت شكل الخبز وحده - وكانت هذه العادة موجودة عند بعض الكهنة من قديم الزمان [3] ، بأن يغمسوا جسد الرب فى الدم الكريم ، وهكذا يوزعونه على الشعب تكميلاً لسر الشركة ، فأراد البابا باسكال الثانى أن ينقض هذه العادة - فكتب رسالة إلى رئيس دير يأمره بإعطاء الشركة تحت شكل كل من الخبز والخمر على حده وهكذا استمرت هذه العادة فى الكنيسة إلى الآن. [4]

١- أنظر : عقائدنا - مقارنة بصورة الحوار - بين القرآن والتوراة والإنجيل ص ٢١٤ بإيجاز وتصرف.

٢- العشاء الربانى : هو الخبز والخمر اللذان يأكلهما المسيحى - فيتحولان إلى ذات لاهوت المسيح وناسوته فى زعمهم - قسمى « سر المذبح » أو الأسرار الرهيبة ، أو « ذبيحة الاستغفار » وغير ذلك من الأسماء التى ليست من الكتاب المقدس بل إنها وليدة الاعتقاد بالاستحالة . أنظر العشاء الربانى ص ٨ عوض سمعان.

٣- يقول القس عوض سمعان : كان تناول الخبز والخمر معا من العادات المألوفة لدى اليهود قديماً فكانوا يمارسونها عند مواساة من مات له قريب أو صديق ، وقد نهوا عن ذلك كما جاء فى سفر أورميا ١٦ : ٦ ، ٧ . أنظر العشاء الربانى ص ٩.

٤- الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة ص ٢٦٧ وما بعدها.

وإلى الآن يعتقد الكاثوليك والأرثوذكس بأن الخبز والخمر يتحولان بطريقة سرية إلى ذات لاهوت المسيح وناسوته وذلك مع بقاء الخبز والخمر كما هما : فى الشكل واللون والطعم والرائحة. فالتحول الذى يحدث فى العشاء الربانى حسب اعتقادهم هو تحول فعلى لا معنوى غاية الأمر أنه غير مدرك بالحواس البشرية .. وأن العشاء الربانى له فاعلية ذاتية ، أى فاعليته مستمدة من ذاته وليست متوقفة على إيمان الذين يقبلونه .. أى أنه مثل النار من خاصيتها الاشتعال .. وهذه الفاعلية هى منح الذين يتناولون منه الغفران والحياة الأبدية .. والتمتع بحلول المسيح فى نفوسهم (١).

ولم يقتصر الأمر عند هذا الوضع : بل إن البابا « هشوريوس » تحت تأثير الكاردينال «ويدو» قرر أن العشاء الربانى لا يستحيل فقط إلى ناسوت المسيح بل وإلى لاهوته أيضا ، وبذلك أصبح الكاهن كما قال البابا «أربان» هو الذى يعمل المسيح ويقدمه لله ذبيحة كفارية عن الناس ، ومن ثم أخذ معظم القائلين بالاستحالة يقدمون السجود للعشاء الربانى (٢).

وأنى أرى فى ذلك إستخفاف بالعقل بل وإلغاء له .. وقد جعله الله ميزاناً يميز الإنسان به فأنظر كيف خالفت البابوية ما جاء به المسيح .. وكيف أدخلت فى

١- العشاء الربانى ص ٣٠ ، ٣١ القس عوض سمعان.

٢- المصدر السابق ص ٢٤٢ : كيف يتم التحويل فى الكنيسة ! إن القسيس يأمر خادمة أن يصنع له فطيرة من سميد صاف ويخبزها .. ويأتى بالخبز مع زجاجة خمر إلى الكنيسة ويأمر القسيس بضرب الناقوس لجمع الناس للصلاة - فإذا وقفوا صفا يصب شيئا من الخمر فى كأس ، ويجعل تلك الفطيرة فى منديل ثم يتقدم ويستقبل المشرق ويأخذ الفطيرة فى يده ويقرأ عليها ما نصه : عيسى المسيح فى ليلة أخذته اليهود .. أخذ الخبز بيده المباركة ورفع عينيه نحو السماء إلى القادر على كل شئ بعد التمجيد وأطعم الحواريين كسرة وقال لهم : كلوا هذا جسدى .. وحين يتم القسيس كلامه ذاك يسجد لتلك الفطيرة زعما منه أنه جسد عيسى ، وكذلك يفعل مع كأس الخمر.

أنظر عقائدنا ص ٢١١ وما بعدها بإيجاز وتصرف.

الدين ماليس منه ؟ فالمسيح لم يأمر تلاميذه بالسجود لشئ إلا لله .. كما قالت أنا جيلهم .. وكما أمرت وصاياتهم : « للرب إلهك تسجد .. وإياه وحده تعبد »[1].

وكما جاء أيضا « لا تصنع لك تمثالاً لا منحوتاً ولا صورة ما .. لا تسجد لهن ولا تعبدهن» [2] .. فليس هناك أساس لهذا السجود فى الكتاب المقدس على الإطلاق [3].

هكذا ترى ما أدخل البابوات فى عقيدتهم .. ولا ندرى بأى عقل يفكرون ؟ وما مصير هذا الذى يأكلون ؟ وهم يعلمون ماذا يرجع المأكول والمشروب .. ألم يندد به إنجيلهم بقوله : « أما تفهمون أن كل ما يدخل الفم ينزل إلى الجوف ويدفع إلى المخرج » [4].

وإن تعجب : فعجب قولهم ، لم يكفهم أن يجعلوا الله ثلاثة : فجعلوه ملايين عدة .. فإن قطع الخبز تقسم كل منها إلى أجزاء بعدد الحاضرين فى كل كنيسة ويصبح كل جزء منها كذلك مسيحاً ، إلهاً وإنساناً ، وثلاثة أقانيم.

بل وتصور قداس الخبز والخمر ، يحصل فى وقت واحد إلى ملايين مضاعفة فى أمكنة متعددة .. إن التثليث بإزاء ذلك شئ حقير جدا ، وإذا كانوا يأكلون «الله» مرة فى كل شهر على الأقل : إن لم يكن عشرات .. بل مئات المرات ، فكم يكون بذلك عدد الآلهة ؟ بل أين مصير هذه الآلهة فى الأحشاء والأمعاء ، وماداموا يعتقدون أن الذى يأكل الله يثبت فيه كما يقول إنجيلهم « من يأكل جسدى ، ويشرب دمى يثبت فى وأنا فيه » [5].

١- إنجيل متى فصل « ٤ : ١٠ ».
٢- سفر الخروج فصل « ٢٠ : ٤ - ٥ ».
٣- العشاء الربانى مرجع سابق هامش ص ٢٤٢.
٤- إنجيل متى ١٥ : ١٧.
٥- إنجيل يوحنا فصل « ٦ : ٥٧ ».

وإذا كان كذلك فما معنى أكله مئات المرات ما دام قد ثبت فيه لأول مرة .. إن من أيسر الأمور على الراهب الناسك أن يعيش على الخبز أو الفطير الذى يحوله متى شاء بإرادته السحرية إلى الله تعالى صباحا وظهرا ومساء ويسجن الله سبحانه فى أمعائه ماعاش [1].

وصدق الله فى وصف حالهم هذا : « مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » [2].

٢- بدعة " صكوك الغفران " :

ولم يكتف بابوات روما - وقد انهال عليهم الذهب ، وأغرقتهم العطايا ، وعاشوا حياة الترف والملاذ ، ورفلوا فى الحرير ، وتحلوا بالذهب ، وصدق فيهم قول الحق جل شأنه : « إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... » [3].

لم يكتفوا بهذا التحريف ، ولا بذاك التغيير ... ولكنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث فرضوا سلطانهم على الناس جميعا .. عامة وخاصة .. فأصدروا بدعة أسموها : صكوك الغفران .. تبيح لمن يشتريها أن يضمن لنفسه ولمن مات من أسرته وأقاربه وأصدقائه مساحة يحددها من الجنة بمقتضى عقد بإمضاء البابا [4].

وكانت الكنيسة تقوم ببيع هذه الصكوك .. حيث كان البابا يرسل رسلا من لديه يبيعون صكوك الغفران للمذنبين .. فكان كل يشترى هذه الصكوك حسب مقدرته .. وأنشط الناس فى البيع حتى صاروا يشترون هذه الصكوك لتخفيف

١- المسيح والتثليث ص ١٤٨ ومابعدها.

٢- سورة الكهف آية (٥١).

٣- سورة التوبة من الآية (٣٤).

٤- الرسائل الكبرى ، سنية قراءة ص ٣٢٣ ، مطبعة دار الشعب ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

عذاب موتاهم ولغفران ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ، وشجعتهم الكنيسة على ذلك لما يعود عليها من الأرباح الطائلة .. وظل الحال على ذلك حتى أصدر البابا - ليو العاشر - في مارس ١٥١٧م أشهر صكوك الغفران حيث كان في حاجة إلى المال لبناء كنيسة القديس بردما [١] » [٢].

٣- رد الفعل وظهور المناوئين والمخالفين لتعاليم الكنيسة البابوية :

بعد الذي أحدثته البابوية في القرن الثاني عشر - ظهر من ينادي بأن تعاليم الكنيسة الرومانية مخالفة لتعاليم المسيح وغير مطابقة لما جاء به.

ففي سنة ١١٧٠م ظهر في فرنسا رجل اسمه بطرس ولده - كان متعكفاً على قراءة الكتاب المقدس ومطالعته - حتى أمكنه ترجمته إلى اللغة الفرنسية ،

١- معالم تاريخ أوروبا الحديث ص ٣١ ، وقصة الحضارة جـ٣ مجلد ٦ عدد ٢٤ ص ٣.

٢- سند الغفران الإنجيلي أو صك الغفران نصه : « ربنا يسوع يا فلان - يلك استحقاقات الإله الكلية المقدسة ، وأنا بالسلطان الرسولي أملك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها .. وأيضا من جميع التفويضات والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ومن كل علة ، ولئن كانت محفوظة لأبينا الأقدس - البابا - والكرسي الرسولي .. وأمحو جميع أقذار الفجر .. وكل علامات الملامة التي جلبتها على نفسك في هذه الفرصة ، وأرفع عنك أنواع القصاص وأردك حديثا إلى الشركة في أسرار الكنيسة .. وأردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك حتى أنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه خطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح ، وإن لم تمت سنين طويلة فهذه النعمة غير متغيرة حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الآب والإبن والروح القدس آمين - الأخ يوحنا تتزل قد أمضى ذلك بيده (٢) : عقائدنا ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، ومحاضرات في النصرانية ص ١٩٥ ، أنظر قصة الحضارة جـ٣ مجلد ٦ عدد ٢٤ ص ٥ ترجمة د. عبدالحميد يونس.

ويوحنا تتزل : راهب دونكي كان يبيع هذه الصكوك إذ كان هذا عمله الرئيسي منذ عام ١٥٠٠م واكتسب شهرة ومهارة في جمع المال ، يعاونه القساوسة والحكام الذين كانوا يرفعون الأعلام والشموع ويرتلون الأناشيد ويرفعون نشرة صك الغفران عالية إذا دخل يوحنا أو «جرمان» تتزل أي مدينة ليبيع هذه الصكوك. قصة الحضارة جـ٣ مجلد ٦ عدد ٢٤ ص ٥ مرجع سابق.

وفى سنة ١١٧٠م ، شرع يصدع بتعاليمه ويبرهن على صحتها ومطابقتها لكتب العهد القديم والجديد مناديا بأن تعاليم الكنيسة الرومانية هو مخالف وغير مطابق لما يعلمنا إياه الكتاب المقدس من العقائد ويأمرنا به من الوصايا ، وحصر تعاليمه فى المبادئ التالية : [١]

١- حصول الإنسان على النجاة يجب التعويل على الكتاب المقدس حيث يتضمن كل شئ .

٢- أن الاقتضاء والاستعانة بالقديسين والاستشفاع بهم فى نيل النجاة لافائدة منه.

٣- أن المطهر اختراع من الإكليروس فظيع ، غايته نوال الأرباح وجمع الأموال.

٤- لا اقتضاء لما يقوم .. من القديسين عن أرواح الراقدين - الموتى - بقصد حصولهم على النجاة فإن غاية ذلك إنما هى ربح «الإكليروس ».

٥- إن مناولة الشركة تحت شكل الخبز وحده هى مخالفة للشريعة.

٦- أن الغفرانات البابوية «صكوك الغفران» هى اختراع غايته اجتباء الأموال ، وأن رئاسة البابا يجب هدمها واستئصالها لأنها مضادة لتعاليم الإنجيل.

وأخذ بطرس هذا ينادى بتعاليمه التى تخالف تعاليم البابوية مبيناً أن السلطة الدينية هى من عند الله ، ويرفض كل من يخالف الشريعة من أعمال الرذيلة - كالعصيان والمروق - والسكر .. والدعارة والسرقة .. فانتشرت تعاليمه ولقب أتباعه بالوالدين نسبة إليه [٢].

من أجل ذلك عقد البابا الاسكندر الثالث مجمعاً فى اللاتران - القصر البابوى - ١١٧٩م ، وذلك ليقضى على هذه التعاليم الوالدية التى تخالف تعاليم البابوية .. وليدرس مسألة انتخاب البابا .. فقرر المجمع مايلى :

١- أنظر الكنيسة المتغربة ص ١١٣ ، تاريخ الفلسفة الغربية جـ٢ ص ٢٢٨ ، الدرة النفيسة ص ٢٧٠.

٢- الدرة النفيسة فى شرح أموال الكنيسة ، ص ٢٧٠ ، الكنيسة المتغربة ص ١١٤ وما بعدها.